

السَّمَوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأُظَنُّهُ كَاذِبًا ﴿غافر: ٣٦، ٣٧﴾ كذب موسى في قوله: إن الله فوق السموات، وقال تعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ [الملك: ١٦].

فالسَّمَوَاتِ فوقها العرش، فلما كان العرش فوق السموات قال: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦]؛ لأنه مستو على العرش الذي هو فوق السموات، وكل ما علا فهو سماء فالعرش أعلى السموات، وليس إذا قال: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] يعني جميع السموات، وإنما أراد العرش الذي هو أعلى السموات، ألا ترى أن الله - عز وجل - ذكر السموات فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]، ولم يرد أن القمر يملأهن وإنه فيهن جميعا.

ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء؛ لأن الله على عرشه الذي هو فوق السموات، فلولا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش، كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض.

ثم قال :

فصل

وقد قال القائلون من المعتزلة، والجهمية، والحرورية: إن معنى قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]: أنه استولى وقهر وملك، وأن الله - عز وجل - في كل مكان، وجحدوا أن يكون الله على عرشه - كما قال أهل الحق - وذهبوا في الاستواء إلى القدرة، فلو كان كما ذكره كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة؛ لأن الله قادر على كل شيء، والأرض، فالله قادر عليها وعلى الحشوش وعلى كل ما في العالم، فلو كان الله مستويا على العرش بمعنى الاستيلاء - وهو عز وجل مستول على الأشياء كلها - لكان مستويا على العرش، وعلى الأرض، وعلى السماء، وعلى الحشوش، والأقذار؛ لأنه قادر على الأشياء مستول عليها.

وإذا كان قادراً على الأشياء كلها، ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول: إن الله مستو على الحشوش والأخلية - لم يجز أن يكون الاستواء على العرش الاستيلاء الذي هو عام في الأشياء كلها، ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص العرش، دون الأشياء كلها. وذكر دلالات من القرآن والحديث، والإجماع والعقل.

ثم قال :

باب الكلام في الوجه والعينين والبصر واليدين

وذكر الآيات في ذلك . ورد على المتأولين لها بكلام طويل لا يتسع هذا الموضع لحكايته : مثل قوله : فإن سئلنا : أتقولون لله يدان ؟ قيل : نقول ذلك ، وقد دل عليه قوله تعالى : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح : ١٠] ، وقوله تعالى : ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدِي﴾ [ص : ٧٥] ، وروى عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله مسح ظهر آدم بيده فاستخرج منه ذريته ، وخلق جنة عدن بيده ، وكتب التوراة بيده »^(١) ، وقد جاء في الخبر المذكور عن النبي ﷺ : « أن الله خلق آدم بيده ، وخلق جنة عدن بيده ، وكتب التوراة بيده ، وغرس شجرة طوبى بيده »^(٢) .

٥ / ٩٨ / وليس يجوز في لسان العرب ولا في عادة أهل الخطاب أن يقول القائل : عملت كذا بيدي ، ويريد بها النعمة ، وإذا كان الله إنما خاطب العرب بلغتها ، وما يجري مفهوماً في كلامها ، ومعقولا في خطابها ، وكان لا يجوز في خطاب أهل البيان أن يقول القائل : فعلت كذا بيدي - ويعني بها النعمة - بطل أن يكون معنى قوله تعالى : بيدي : النعمة . وذكر كلاماً طويلاً في تقرير هذا ونحوه .

وقال القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي المتكلم - وهو أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعري ، ليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده - قال في «كتاب الإبانة» تصنيفه : فإن قال قائل : فما الدليل على أن لله وجهاً ويدياً؟ قيل له : قوله : ﴿وَيَقْنِي وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن : ٢٧] ، وقوله تعالى : ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدِي﴾ [ص : ٧٥] فأثبت لنفسه وجهاً ويدياً .

فإن قال : فلم أنكرتم أن يكون وجهه ويده جارحة إن كنتم لا تعقلون وجهاً ويدياً إلا جارحة؟

٥ / ٩٩ قلنا : لا يجب هذا ، كما لا يجب إذا لم نعقل حياً عالماً قادراً إلا جسماً أن نقضي نحن وأنتم بذلك على الله - سبحانه وتعالى - وكما لا يجب في كل شيء كان قائماً بذاته أن يكون جوهرأ ؛ لأننا وإياكم لم نجد قائماً بنفسه في شاهدنا إلا كذلك ، / وكذلك الجواب لهم إن قالوا : يجب أن يكون علمه وحياته ، وكلامه وسمعه وبصره ، وسائر صفات ذاته عرضاً واعتلوا بالوجود .

(٢) ابن سعد في الطبقات ١ / ٢٤ ، ط الكتب العلمية .

(١) سبئ تخريجه ص ٥٩ .

وقال : « فإن قال : فهل تقولون : إنه في كل مكان؟

قيل له : معاذ الله ، بل مستوي على عرشه كما أخبر في كتابه فقال : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه : ٥] ، وقال الله تعالى : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] ، وقال : ﴿أَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾ [الملك: ١٦] . قال : ولو كان في كل مكان لكان في بطن الإنسان وفمه ، والحشوش والمواضع التي يرغب عن ذكرها ، ولوجب أن يزيد بزيادة الأمكنة إذا خلق منها ما لم يكن ، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان ، ولصح أن يرغب إليه إلى نحو الأرض ، وإلى خلفنا ، وإلى يميننا ، وإلى شمالنا ، وهذا قد أجمع المسلمون على خلافه وتخطئه قائله .

وقال - أيضاً - في هذا الكتاب : صفات ذاته التي لم يزل ولا يزال موصوفا بها : هي الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والإرادة ، والبقاء ، والوجه والعينان ، واليدان ، والغضب ، والرضا .

وقال في « كتاب التمهيد » كلاماً أكثر من هذا ، لكن ليست النسخة حاضرة عندي ، وكلامه وكلام غيره من المتكلمين في مثل هذا الباب كثير لمن يطلبه ، وإن كنا مستغنين بالكتاب والسنة وآثار السلف عن كل كلام .

/وملاك الأمر : أن يهب الله للعبد حكمة وإيماناً ، بحيث يكون له عقل ودين ، حتى يفهم ويدين ، ثم نور الكتاب والسنة يغنيه عن كل شيء ، ولكن كثيراً من الناس قد صار منتسباً إلى بعض طوائف المتكلمين ، ومحسناً للظن بهم دون غيرهم ، ومتوهماً أنهم حققوا في هذا الباب ما لم يحققه غيرهم ؛ فلو أتى بكل آية ما تبعها حتى يؤتى بشيء من كلامهم .

٥/١٠٠

ثم هم مع هذا مخالفون لأسلافهم غير متبعين لهم ، فلو أنهم أخذوا بالهدى ، الذي يجدونه في كلام أسلافهم ، لرجي لهم مع الصدق في طلب الحق أن يزدادوا هدى ، ومن كان لا يقبل الحق إلا من طائفة معينة ، ثم لا يتمسك بما جاءت به من الحق ، ففيه شبه من اليهود الذين قال الله فيهم : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١] .

فإن اليهود قالوا : لا نؤمن إلا بما أنزل علينا ، قال الله تعالى لهم : ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١] أي : إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم ، يقول -

سبحانه وتعالى - : لا لما جاءتكم به أنبياءكم تتبعون، ولا لما جاءتكم به سائر الأنبياء تتبعون، ولكن إنما تتبعون أهواءكم ، فهذا حال من لم يقبل الحق ، لا من طائفته ولا من غيرها، مع كونه يتعصب لطائفته بلا برهان من الله ولا بيان .

وكذلك قال أبو المعالي الجويني في كتابه «الرسالة النظامية»: اختلف مسالك العلماء في هذه الظواهر ، فرأى بعضهم تأويلها ، والتزم ذلك في أي/ الكتاب ، وما يصح من ٥/١٠١ السنن ، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها ، وتفويض معانيها إلى الرب. فقال: والذي نرتضيه رأياً وندين الله به عقيدة: اتباع سلف الأمة، والدليل السمعي القاطع في ذلك إجماع الأمة وهو حجة متبعة، وهو مستند معظم الشريعة.

وقد درج صحب رسول الله ﷺ على ترك التعرض لمعانيها ودرك ما فيها - وهم صفوة الإسلام والمستقلون بأعباء الشريعة، وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة والتواصي بحفظها ، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها - فلو كان تأويل هذه الظواهر مسوغاً أو محتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذا انصرم عصرهم وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل، كان ذلك هو الوجه المتبع، فحق على ذي الدين أن يعتقد تنزه الباري عن صفات المحدثين، ولا يخوض في تأويل المشكلات، ويكل معناها إلى الرب تعالى، فليجر آية الاستواء والمجيء، وقوله: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدِي﴾ [ص: ٧٥]، ﴿وَيَقْنِي وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] وما صح من أخبار الرسول كخبر النزول وغيره، على ما ذكرناه.

قلت: وليعلم السائل أن الغرض من هذا الجواب: ذكر ألفاظ بعض الأئمة الذين نقلوا مذهب السلف في هذا الباب ، وليس كل من ذكرنا شيئاً من قوله - من المتكلمين وغيرهم - يقول بجميع ما نقوله في هذا الباب وغيره، ولكن الحق يقبل من كل من تكلم به ؛ وكان معاذ بن جبل يقول في كلامه / المشهور عنه ، الذي رواه أبو داود في ٥/١٠٢ سننه: اقبلوا الحق من كل من جاء به ؛ وإن كان كافراً - أو قال: فاجراً - واحذروا زيغة الحكيم. قالوا: كيف نعلم أن الكافر يقول كلمة الحق؟ قال: إن على الحق نوراً، أو قال كلاماً هذا معناه (١).

فأما تقرير ذلك بالدليل ، وإمطة ما يعرض من الشبه ، وتحقيق الأمر على وجه يخلص إلى القلب ما يبرد به من اليقين، ويقف على مواقف آراء العباد في هذه المهامة،

(١) أبو داود في السنة (٤٦١).

فما تسع له هذه الفتوى ، وقد كتبت شيئاً من ذلك قبل هذا ، وخاطبت ببعض ذلك بعض من يجالسنا ، وربما أكتب - إن شاء الله - في ذلك ما يحصل به المقصود .

وجماع الأمر في ذلك : أن الكتاب والسنة يحصل منهما كمال الهدى والنور لمن تدبر كتاب الله وسنة نبيه، وقصد اتباع الحق ، وأعرض عن تحريف الكلم عن مواضعه، والإلحاد في أسماء الله وآياته .

ولا يحسب الحاسب أن شيئاً من ذلك يناقض بعضه بعضاً البتة؛ مثل أن يقول القائل : مافي الكتاب والسنة - من أن الله فوق العرش - يخالفه الظاهر من قوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد: ٤] .

وقوله ﷺ : « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قبل وجهه » (١)، ونحو ذلك، فإن هذا غلط .

وذلك أن الله معنا حقيقة، وهو فوق العرش حقيقة، كما جمع الله بينهما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤] .

فأخبر أنه فوق العرش يعلم كل شيء، وهو معنا أينما كنا ، كما قال النبي ﷺ في حديث الأوعال : « والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه » (٢) .

وذلك أن كلمة (مع) في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة، من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال، فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى . فإنه يقال : ما زلنا نسير والقمر معنا أو والنجم معنا . ويقال : هذا المتاع معي لمجاعته لك، وإن كان فوق رأسك . فالله مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة .

ثم هذه « المعية » تختلف أحكامها بحسب الموارد، فلما قال : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد: ٤] دل ظاهر الخطاب على أن

(١) البخاري في الصلاة (٤٠٦)، ومسلم في المساجد (٥٤٧/٥٠) ، وأبو داود في الصلاة (٤٨٥) ، والنسائي في المساجد (٧٢٤)، وابن ماجه في المساجد (٧٦٣)، وأحمد ٦/٢، ٢٩، كلهم عن عبد الله بن عمر إلا أبا داود فهو عن جابر بن عبد الله .

(٢) سبق تخريجه ص ١٣ .

حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليكم، شهيد عليكم، ومهيمن عالم بكم . وهذا معنى قول السلف: أنه معهم بعلمه، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته .

/ وكذلك في قوله: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة: ٧] .

ولما قال النبي ﷺ لصاحبه في الغار: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] كان هذا - أيضا - حقا على ظاهره ، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا معية الاطلاع، والنصر والتأييد .

وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] وكذلك قوله لموسى وهارون: ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه: ٤٦] . هنا المعية على ظاهرها، وحكمها في هذه المواطن النصر والتأييد .

وقد يدخل على صبي من يخيفه فيكي، فيشرف عليه أبوه من فوق السقف فيقول: لا تخف أنا معك أو أنا هنا، أو أنا حاضر ونحو ذلك . ينبهه على المعية الموجبة بحكم الحال دفع المكروه ففرق بين معنى المعية وبين مقتضاها، وربما صار مقتضاها من معناها، فيختلف باختلاف المواضع .

فلفظ «المعية» قد استعمل في الكتاب والسنة في مواضع، يقتضى في كل موضع أمورا لا يقتضيها في الموضع الآخر، فأما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع، أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردنا - وإن امتاز كل موضع بخصوصية - فعلى التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب - عز وجل - مختلطة بالخلق، حتى يقال: قد صرفت عن ظاهرها .

/ ونظيرها من بعض الوجوه «الربوبية، والعبودية»، فإنهما وإن اشتركتا في أصل الربوبية والعبودية فلما قال: ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨] كانت ربوبية موسى وهارون لها اختصاص زائد على الربوبية العامة للخلق؛ فإن من أعطاه الله من الكمال أكثر مما أعطى غيره، فقد ربه ورباه ربوبية وتربية أكمل من غيره . وكذلك قوله: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان: ٦] و﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ [الإسراء: ١] .

فإن العبد تارة يعنى به المعبد فيعم الخلق، كما في قوله: ﴿ إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣]، وتارة يعنى به العابد فيخص، ثم يختلفون، فمن كان أعبد علما وحالا كانت عبوديته أكمل ، فكانت الإضافة في حقه أكمل ، مع

أنها حقيقة في جميع المواضع .

ومثل هذه الألفاظ يسميها بعض الناس « مشككة »؛ لتشكك المستمع فيها، هل هي من قبيل الأسماء المتواطئة أو من قبيل المشتركة في اللفظ فقط . والمحققون يعلمون أنها ليست خارجة عن جنس المتواطئة ؛ إذ واضح اللغة إنما وضع اللفظ بإزاء القدر المشترك، وإن كانت نوعاً مختصاً من المتواطئة فلا بأس بتخصيصها بلفظ .

ومن علم أن « المعية » تضاف إلى كل نوع من أنواع المخلوقات - كإضافة الربوبية مثلاً - وأن الاستواء على الشيء ليس إلا للعرش ، وأن الله يوصف بالعلو والفقوة الحقيقية، ولا يوصف بالسفول ولا بالتحتية قط، لا حقيقة ولا مجازاً، علم أن القرآن على ما هو عليه من غير تحريف .

ثم من توهم أن كون الله في السماء، بمعنى أن السماء تحيط به وتحويه، فهو كاذب - إن نقله عن غيره - وضال - إن اعتقده في ربه - وما سمعنا أحداً يفهم هذا من اللفظ ، ولا رأينا أحداً نقله عن واحد ، ولو سئل سائر المسلمين: هل تفهمون من قول الله ورسوله: « إن الله في السماء »: أن السماء تحويه، لبادر كل أحد منهم إلى أن يقول: هذا شيء لعله لم يخطر ببالنا .

وإذا كان الأمر هكذا ، فمن التكلف أن يجعل ظاهر اللفظ شيئاً محالاً لا يفهمه الناس منه، ثم يريد أن يتأوله ، بل عند الناس « أن الله في السماء »، « وهو على العرش » واحد؛ إذ السماء إنما يراد به العلو ، فالمعنى: أن الله في العلو لا في السفلى، وقد علم المسلمون أن كرسية - سبحانه وتعالى - وسع السموات والأرض ، وأن الكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وأن العرش خلق من مخلوقات الله لا نسبة له إلى قدرة الله وعظمته، فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقاً يحصره ويحويه؟ وقد قال سبحانه: ﴿وَأَصْلَبَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، وقال: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧] بمعنى (على) ونحو ذلك، وهو كلام عربي حقيقة لا مجازاً، وهذا يعلمه من عرف حقائق معاني الحروف، وإنها متواطئة في الغالب لا مشتركة .

/ وكذلك قوله ﷺ: « إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الله قبل وجهه، فلا يصق قبل وجهه » الحديث (١)، حق على ظاهره، وهو سبحانه فوق العرش وهو قبل وجه المصلي،

(١) سبق تخريجه ص ٦٨ .

بل هذا الوصف يثبت للمخلوقات .

فإن الإنسان لو أنه يناجي السماء أو يناجي الشمس والقمر، لكانت السماء والشمس والقمر فوقه، وكانت أيضاً قبل وجهه .

وقد ضرب النبي ﷺ المثل بذلك - ولله المثل الأعلى ، ولكن المقصود بالتمثيل بيان جواز هذا وإمكانه، لا تشبيه الخالق بالمخلوق - فقال النبي ﷺ : « ما منكم من أحد إلا سيرى ربه مخلياً (١) به » ، فقال له أبو رزین العقبلي: كيف يا رسول الله وهو واحد ونحن جميع؟ فقال النبي ﷺ : « سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله، هذا القمر كلكم يراه مخلياً به، وهو آية من آيات الله؛ فالله أكبر (٢) ، أو كما قال النبي ﷺ ، وقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر » (٣) فشبّه الرؤية بالرؤية ، وإن لم يكن المرئي مشابهاً للمرئي ، فالؤمنون إذا رأوا ربهم يوم القيامة وناجوه، كل يراه فوقه قبل وجهه؛ كما يرى الشمس والقمر، ولا منافاة أصلاً .

ومن كان له نصيب من المعرفة بالله، والرسوخ في العلم بالله - يكون إقراره للكتاب والسنة على ما هما عليه أوكد .

واعلم أن من المتأخرين من يقول : مذهب السلف إقرارها على ما جاءت به ، مع ٥/١٠٨ اعتقاد أن ظاهرها غير مراد ، وهذا اللفظ « مجمل »، فإن قوله : « ظاهرها غير مراد » يحتمل أنه أراد بالظاهر نعوت المخلوقين ، وصفات المحدثين مثل أن يراد بكون « الله قَبْلَ وجه المصلى » : أنه مستقر في الحائط الذي يصلى إليه ، وأن « الله معنا » ظاهره : أنه إلى جانبنا، ونحو ذلك، فلا شك أن هذا غير مراد .

ومن قال: إن مذهب السلف أن هذا غير مراد، فقد أصاب في المعنى، لكن أخطأ بإطلاق القول بأن هذا ظاهر الآيات والأحاديث ، فإن هذا المحال ليس هو الظاهر على ما قد بيناه في غير هذا الموضوع . اللهم إلا أن يكون هذا المعنى الممتنع صار يظهر لبعض الناس، فيكون القائل لذلك مصيباً بهذا الاعتبار، معذوراً في هذا الإطلاق .

فإن الظهور والبطون قد يختلف باختلاف أحوال الناس، وهو من الأمور النسبية ، وكان أحسن من هذا أن يبين لمن اعتقد أن هذا هو الظاهر أن هذا ليس هو الظاهر ، حتى يكون قد أعطى كلام الله وكلام رسوله حقه لفظاً ومعنى .

(١) مخلياً: اسم فاعل من « أخلق » ومعنى مخلياً : أي منفرداً برويته من غير مزاحمة .

(٢) أحمد ١١/٤ ، وابن ماجه في المقدمة (١٨٠) .

(٣) سبق تخريجه ص ٣٠ .

وإن كان الناقل عن السلف أراد بقوله : «الظاهر غير مراد عندهم» أن المعاني التي تظهر من هذه الآيات والأحاديث مما يليق بجلال الله وعظمته ، ولا يختص بصفة المخلوقين ، بل هي واجبة لله ، أو جائزة عليه جوازاً ذهنياً ، أو جوازاً خارجياً / غير مراد ، فهذا قد أخطأ فيما نقله عن السلف ، أو تعمد الكذب ، فما يمكن أحد قط أن ينقل عن واحد من السلف ما يدل - لا نصاً ولا ظاهراً - أنهم كانوا يعتقدون أن الله ليس فوق العرش ، ولا أن الله ليس له سمع ولا بصر ، ولا يد حقيقية .

٥ / ١٠٩

وقد رأيت هذا المعنى يتحلل بعض من يحكيه عن السلف ، ويقولون : إن طريقة أهل التأويل هي في الحقيقة طريقة السلف - بمعنى أن الفريقين اتفقوا على أن هذه الآيات والأحاديث لم تدل على صفات الله - سبحانه وتعالى - ولكن السلف أمسكوا عن تأويلها ، والمتأخرون رأوا المصلحة في تأويلها ، لمسيح الحاجة إلى ذلك ، ويقولون : الفرق بين الطريقتين أن هؤلاء قد يعينون المراد بالتأويل ، وأولئك ، لا يعينون لجواز أن يراد غيره .

وهذا القول على الإطلاق كذب صريح على السلف . أما في كثير من الصفات قطعاً : مثل أن الله - تعالى - فوق العرش ، فإن من تأمل كلام السلف المنقول عنهم - الذي لم يحك هنا عشره - علم بالاضطرار أن القوم كانوا مصرحين بأن الله فوق العرش حقيقة ، وأنهم ما اعتقدوا خلاف هذا قط ، وكثير منهم قد صرح في كثير من الصفات بمثل ذلك .

والله يعلم أي بعد البحث التام ، ومطالعة ما أمكن من كلام السلف ، ما رأيت كلام أحد منهم يدل - لا نصاً ، ولا ظاهراً ، ولا بالقرائن - على نفي الصفات الخيرية / في نفس الأمر ، بل الذي رأيت أنه كثيراً من كلامهم يدل - إما نصاً وإما ظاهراً - على تقرير جنس هذه الصفات ، ولا أنقل عن كل واحد منهم إثبات كل صفة ؛ بل الذي رأيت أنه يثبتون جنسها في الجملة ، وما رأيت أحداً منهم نفاها .

٥ / ١١٠

وإنما ينفون التشبيه ، و ينكرون على المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه ، مع إنكارهم على من ينفي الصفات أيضاً ؛ كقول نعيم بن حماد الخزازي شيخ البخاري : من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيهاً .

وكانوا إذا رأوا الرجل قد أغرق في نفي التشبيه من غير إثبات الصفات قالوا : هذا جهمي مُعطلٌ ؛ وهذا كثير جداً في كلامهم ، فإن الجهمية والمعتزلة إلى اليوم يسمون من أثبت شيئاً من الصفات مشبهاً - كذباً منهم وافتراء - حتى إن منهم [من] غلا ورمى

الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - بذلك، حتى قال ثُمَامَةُ بن الأشرس من رؤساء الجهمية : ثلاثة من الأنبياء مشبهة؛ موسى حيث قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وعيسى حيث قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، ومحمد ﷺ حيث قال: «ينزل ربنا»^(١). وحتى إن جل المعتزلة تدخل عامة الأئمة؛ مثل مالك وأصحابه، والثوري وأصحابه، والأوزاعي وأصحابه، والشافعي وأصحابه، وأحمد وأصحابه، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد وغيرهم، في قسم المشبهة.

٥/ ١١١

/وقد صنف أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان بن درباس الشافعي جزءاً سماه: «تنزيه أئمة الشريعة عن الألقاب الشنيعة»، ذكر فيه كلام السلف وغيرهم في معاني هذا الباب، وذكر أن أهل البدع كل صنف منهم يلقب «أهل السنة» بلقب افتراه - يزعم أنه صحيح على رأيه الفاسد - كما أن المشركين كانوا يلقبون النبي بألقاب افتروها.

فالروافض تسميهم نواصب، والقدرية يسمونهم مجبرة، والمرجئة تسميهم شكاكاء، والجهمية تسميهم مشبهة، وأهل الكلام يسمونهم حشوية، ونوآبِت (٢) وغثاء، وغثراً (٣)، إلى أمثال ذلك، كما كانت قريش تسمى النبي ﷺ تارة مجنوناً، وتارة شاعراً، وتارة كاهناً، وتارة مفترياً.

قالوا: فهذه علامة الإرث الصحيح والمتابعة التامة، فإن السنة هي ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، اعتقاداً واقتصاداً وقولاً وعملاً، فكما أن المنحرفين عنه يسمونهم بأسماء مذمومة مكذوبة - وإن اعتقدوا صدقها بناء على عقيدتهم الفاسدة - فكذلك التابعون له على بصيرة الذين هم أولى الناس به في المحيا والممات، باطنياً وظاهراً.

٥/ ١١٢

وأما الذين وافقوه ببواطنهم وعجزوا عن إقامة الظواهر، والذين وافقوه بظواهرهم وعجزوا عن تحقيق البواطن، والذين وافقوه ظاهراً وباطناً بحسب الإمكان - فلا بد للمنحرفين عن سنته أن يعتقدوا فيهم نقصاً يذمونهم به،/ ويسمونهم بأسماء مكذوبة - وإن اعتقدوا صدقها - كقول الرافضي: من لم يبغض أبا بكر - رضي الله عنه - وعمر، فقد أبغض علياً؛ لأنه لا ولاية لعلي إلا بالبراءة منهما، ثم يجعل من أحب أبا بكر وعمر ناصيباً؛ بناء على هذه الملازمة الباطلة، التي اعتقدها صحيحه أو عاند فيها وهو الغالب.

وكقول القدري: من اعتقد أن الله أراد الكائنات وخلق أفعال العباد، فقد سلب من

(١) سبق تخريجه ص ٣٨ .

(٢) النَوَابِت: الأغمار من الأحداث . انظر : القاموس ، مادة «نبت» .

(٣) الغُثْرُ : سفلة الناس . انظر : القاموس ، مادة « غثر » .

العباد الاختيار والقدرة ، وجعلهم مجبورين كالجُمادات التي لا إرادة لها ولا قدرة .
وكقول الجهمي : من قال : إن الله فوق العرش ، فقد زعم أنه محصور ، وأنه جسم
مركب محدود ، وأنه مشابه لخلقه .

وكقول الجهمية المعتزلة : من قال : إن لله علماً وقدرة ، فقد زعم أنه جسم مركب ،
وإنه مشبه ؛ لأن هذه الصفات أعراض ، والعرض لا يقوم إلا بجوهر متحيز ، وكل
متحيز جسم مركب ، أو جوهر فرد ، ومن قال ذلك فهو مشبه ؛ لأن الأجسام متماثلة .
ومن حكى عن الناس «المقاتلات» ، وسماهم بهذه الأسماء المكذوبة - بناء على عقيدته
التي هم مخالفون له فيها - فهو ورثه والله من ورثه بالمرصاد ، ولا يحق المكر السيئ
إلا بأهله .

5 / 113 / وجماع الأمر : أن الأقسام الممكنة في آيات الصفات وأحاديثها «ستة أقسام» ، كل
قسم عليه طائفة من أهل القبلة :

قسمان يقولان : تجرى على ظواهرها .

وقسمان يقولان : هي على خلاف ظاهرها .

وقسمان يسكتون .

أما الأولون فقسمان :

أحدهما : من يجريها على ظاهرها ويجعل ظاهرها من جنس صفات المخلوقين ،
فهؤلاء المشبهة ، ومذهبه باطل ، أنكره السلف ، وإليه يتوجه الرد بالحق .

الثاني : من يجريها على ظاهرها اللائق بجلال الله ، كما يجرى ظاهر اسم العليم
والقدير ، و الرب والإله ، والموجود والذات ، ونحو ذلك ، على ظاهرها اللائق بجلال
الله ، فإن ظواهر هذه الصفات في حق المخلوق إما جوهر محدث ، وإما عرض قائم به .

فالعلم والقدرة ، والكلام والمشية ، والرحمة والرضا ، والغضب ونحو ذلك ، في
حق العبد أعراض ؛ والوجه واليد والعين في حقه أجسام ، فإذا كان / الله موصوفاً عند
5 / 114 عامة أهل الإثبات بأن له علماً وقدرة ، وكلاماً ومشية - وإن لم يكن ذلك عرضاً ،
يجوز عليه ما يجوز على صفات المخلوقين - جاز أن يكون وجه الله ويداه صفات ليست
أجساماً ، يجوز عليها ما يجوز على صفات المخلوقين .

وهذا هو المذهب الذي حكاه الخطابي وغيره عن السلف ، وعليه يدل كلام

جمهورهم، وكلام الباقي لا يخالفه، وهو أمر واضح ، فإن الصفات كالذات، فكما أن ذات الله ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس المخلوقات ، فصفاته ثابتة حقيقة من غير أن تكون من جنس صفات المخلوقات .

فمن قال : لا أعقل علماً ويداً إلا من جنس العلم واليد المعهودين . قيل له : فكيف تعقل ذاتاً من غير جنس ذوات المخلوقين ؟ ومن المعلوم أن صفات كل موصوف تناسب ذاته وتلائم حقيقته، فمن لم يفهم من صفات الرب - الذي ليس كمثله شيء - إلا ما يناسب المخلوق فقد ضل في عقله ودينه .

وما أحسن ما قال بعضهم : إذا قال لك الجهمي: كيف استوى؟ أو كيف ينزل إلى سماء الدنيا؟ أو كيف يدها ؟ ونحو ذلك، فقل له : كيف هو في ذاته؟ فإذا قال لك : لا يعلم ما هو إلا هو ، وكنه الباري - تعالى - غير معلوم للبشر . فقل له : فالعلم بكيفية الصفة مستلزم للعلم بكيفية الموصوف، فكيف يمكن أن تعلم كيفية صفة لموصوف/ لم تعلم كيفيته، وإنما تعلم الذات والصفات من حيث الجملة على الوجه الذي ينبغي لك .

٥/١١٥

بل هذه « المخلوقات في الجنة » قد ثبت عن ابن عباس أنه قال : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء ، وقد أخبر الله - تعالى - أنه لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين، وأخبر النبي ﷺ « أن في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر »^(١). فإذا كان نعيم الجنة وهو خلق من خلق الله كذلك فما ظنك بالخالق - سبحانه وتعالى .

وهذه «الروح» التي في بني آدم، قد علم العاقل اضطراب الناس فيها، وإمساك النصوص عن بيان كيفيتها؛ أفلا يعتبر العاقل بها عن الكلام في كيفية الله - تعالى؟ مع أننا نقطع بأن الروح في البدن ، وأنها تخرج منه وتخرج إلى السماء ، وأنها تُسَلَّ منه وقت النزع، كما نظقت بذلك النصوص الصحيحة، لا نغالي في تجريدنا غلو المتفلسفة ومن وافقهم - حيث نفوا عنها الصعود والنزول ، والاتصال بالبدن والانفصال عنه، وتخطوا فيها حيث رأوها من غير جنس البدن وصفاته، فعدم مماثلتها للبدن لا ينفي أن تكون هذه الصفات ثابتة لها بحسبها، إلا أن يفسروا كلامهم بما يوافق النصوص ، فيكونون قد أخطؤوا في اللفظ وأنى لهم بذلك؟!

٥/١١٦

ولا نقول إنها مجرد جزء من أجزاء البدن كالدّم والبخار مثلاً، أو صفة من / صفات

(١) سبق تخريجه ص ٢٦ .

البدن والحياة، وأنها مختلفة الأجساد ، ومساوية لسائر الأجساد في الحد والحقيقة، كما يقول طوائف من أهل الكلام، بل نتيقن أن الروح عين موجودة غير البدن، وأنها ليست مماثلة له، وهي موصوفة بما نطقت به النصوص حقيقة لا مجازاً، فإذا كان مذهبنا في حقيقة الروح وصفاتها بين المعطلة والمثلة ، فكيف الظن بصفات رب العالمين؟

وأما القسمان اللذان ينفيان ظاهرهما؛ أعني الذين يقولون: ليس لها في الباطن مدلول هو صفة الله تعالى قط، وأن الله لا صفة له ثبوتية، بل صفاته إما سلبية وإما إضافية وإما مركبة منهما، أو يشتون بعض الصفات - وهي الصفات السبعة أو الثمانية أو الخمسة عشر- أو يشتون الأحوال دون الصفات، ويقرون من الصفات الخبرية بما في القرآن دون الحديث، على ما قد عرف من مذاهب المتكلمين - فهؤلاء قسمان:

قسم يتأولونها ويعينون المراد؛ مثل قولهم: استوى بمعنى: استولى، أو بمعنى: علو المكانة والقدر ، أو بمعنى: ظهور نوره للعرش، أو بمعنى: انتهاء الخلق إليه، إلى غير ذلك من معاني المتكلمين.

وقسم يقولون : الله أعلم بما أراد بها، لكننا نعلم أنه لم يرد إثبات صفة خارجية عما علمناه:

وأما القسمان الواقفان:

5/117 / فقوم يقولون : يجوز أن يكون ظاهرها المراد اللائق بجلال الله، ويجوز ألا يكون المراد صفة الله ونحو ذلك. وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم .

وقوم يمسكون عن هذا كله ولا يزيدون على تلاوة القرآن وقراءة الحديث، معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات.

فهذه الأقسام الستة لا يمكن أن يخرج الرجل عن قسم منها.

والصواب في كثير من آيات الصفات وأحاديثها، القطع بالطريقة الثابتة، كآيات والأحاديث الدالة على أن الله - سبحانه وتعالى - فوق عرشه، ويعلم طريقة الصواب في هذا وأمثاله، بدلالة الكتاب والسنة والإجماع على ذلك ، دلالة لا تحتل النقيض ، وفي بعضها قد يغلب على الظن ذلك مع احتمال النقيض، وتردد المؤمن في ذلك هو بحسب ما يؤتاه من العلم والإيمان، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

ومن اشتبه عليه ذلك أو غيره، فليدع بما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة - رضي

اللَّهِ عنها - قالت : كان رسول الله ﷺ إذا قام يصلي من الليل قال : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١)، وفي رواية لأبي داود: أنه كان يكبر في صلاته ثم يقول ذلك^(٢) .

٥/١١٨

/ فإذا افتقر العبد إلى الله ودعاه، وأدمن النظر في كلام الله وكلام رسوله وكلام الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين - انفتح له طريق الهدى، ثم إن كان قد خبر نهايات أقدام المتفلسفة والمتكلمين في هذا الباب، وعرف أن غالب ما يزعمونه برهاناً هو شبهة، ورأى أن غالب ما يعتمدونه يؤول إلى دعوى لا حقيقة لها، أو شبهة، مركبة من قياس فاسد، أو قضية كلية لا تصح لإجزئية، أو دعوى إجماع لا حقيقة له، أو التمسك في المذهب والدليل بالألفاظ المشتركة.

ثم إن ذلك إذا ركب بألفاظ كثيرة طويلة غريبة عن من لم يعرف اصطلاحهم - أوهمت الغر^(٣) ما يوهمه السراب للعطشان - ازداد إيماناً وعلماً بما جاء به الكتاب والسنة، فإن «الضدُّ يُظهِرُ حُسْنَهُ الضدُّ»، وكل من كان بالباطل أعلم كان للحق أشد تعظيماً، وبقدرة أعرف إذا هدى إليه.

فأما المتوسطون من المتكلمين، فيخاف عليهم ما لا يخاف على من لم يدخل فيه، وعلى من قد أنهاه نهايته، فإن من لم يدخل فيه فهو في عافية، ومن أنهاه فقد عرف الغاية، فما بقي يخاف من شيء آخر، فإذا ظهر له الحق وهو عطشان إليه قبله، وأما المتوسط فيتوهم بما يتلقاه من المقالات المأخوذة تقليداً لمعظمة هؤلاء.

٥/١١٩

وقد قال بعض الناس: أكثر ما يفسد الدنيا نصف متكلم، ونصف / متفقه، ونصف متطبب، ونصف نحوى، هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد البلدان، وهذا يفسد الأبدان، وهذا يفسد اللسان.

ومن علم أن المتكلمين من المتفلسفة وغيرهم في الغالب في قول مختلف. يؤفك عنه من أفك، يعلم الذكي منهم والعاقل: أنه ليس هو فيما يقوله على بصيرة، وأن حجته ليست بينة وإنما هي كما قيل فيها:

حجج تهافت كالزجاج تخالها حقاً وكل كاسر مكسور

(٢) أبو داود في الصلاة (٧٦٧، ٧٦٨) .

(١) مسلم في صلاة المسافرين (٧٧٠ / ٢٠٠) .

(٣) هو من لا تجربة له. انظر: القاموس، مادة «غرر».

ويعلم العليم البصير بهم أنهم من وجه مستحقون ما قاله الشافعي - رضي الله عنه - حيث قال: حكمني في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من أعرض عن الكتاب والسنة وأقبل على الكلام.

ومن وجه آخر، إذا نظرت إليهم بعين القدر - والحيرة مستولية عليهم، والشيطان مستحوذ عليهم - رحمتهم وترفت بهم، أوتوا ذكاء وما أوتوا زكاءً وأعطوا فهوماً وما أعطوا علوماً ، وأعطوا سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

ومن كان عليماً بهذه الأمور، تبين له بذلك حذق السلف وعلمهم وخبرتهم، / حيث حذروا عن الكلام ونهوا عنه ، وذموا أهله وعابوهم، وعلم أن من ابتغى الهدى في غير الكتاب والسنة لم يزد من الله إلا بعداً.

فنسأل الله العظيم أن يهدينا صراطه المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. آمين.

والحمد لله رب العالمين، وصلاته وسلامه على محمد خاتم النبيين وآله وصحبه أجمعين.

سئل شيخ الإسلام - قدس الله روحه - عن علو الله - تعالى - واستوائه
على عرشه
فأجاب:

قد وصف الله - تعالى - نفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله بالعلو والاستواء على
العرش، والفوقية، في كتابه في آيات كثيرة، حتى قال بعض أكابر أصحاب الشافعي: في
القرآن ألف دليل أو أزيد، تدل على أن الله - تعالى - عال على الخلق، وأنه فوق عباده.
وقال غيره: فيه ثلاثمائة دليل تدل على ذلك؛ مثل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾
[الأعراف: ٢٠٦]، ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ [الأنبياء: ١٩]؛ فلو كان
المراد بأن معنى عنده في قدرته - كما يقول الجهمي - لكان الخلق كلهم عنده؛ فإنهم كلهم
في قدرته ومشيتته، ولم يكن فرق بين من في السموات ومن في الأرض ومن عنده.

كما أن الاستواء على العرش لو كان المراد به الاستيلاء عليه، لكان مستويا على
جميع المخلوقات، ولكان مستويا على العرش قبل أن يخلقه دائماً، والاستواء/ مختص
بالعرش بعد خلق السموات والأرض، كما أخبر بذلك في كتابه، فدل على أنه تارة كان
مستويا عليه، وتارة لم يكن مستويا عليه؛ ولهذا كان العلو من الصفات المعلومة بالسمع
مع العقل والشرع عند الأئمة المثبتة، وأما الاستواء على العرش، فمن الصفات المعلومة
بالسمع فقط دون العقل.

والمقصود أنه - تعالى - وصف نفسه بالمعية والقرب. والمعية معيتان: عامة، وخاصة.
فالأولى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]. والثانية قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ
مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، إلى غير ذلك من الآيات.
وأما القرب فهو كقوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾
[الواقعة: ٨٥]

وافترق الناس في هذا المقام أربع فرق:

ف«الجهمية» النفاة الذين يقولون: لا هو داخل العالم ولا خارج العالم، ولا فوق ولا
تحت، لا يقولون بعلوه ولا بفوقيته، بل الجميع عندهم متأول أو مفوض، وجميع أهل
البدع قد يتمسكون بنصوص؛ كالحوارج والشيعية والقدرية والمرجئة وغيرهم، إلا الجهمية،

فإنه ليس معهم عن الأنبياء كلمة واحدة توافق ما يقولونه من النفي .

ولهذا قال ابن المبارك، ويوسف بن أسباط: الجهمية خارجون عن/ الثلاث وسبعين فرقة، وهذا أعدل الوجهين لأصحاب أحمد، ذكرهما أبو عبد الله بن حامد وغيره.

وقسم ثان: يقولون: إنه بذاته في كل مكان، كما يقول ذلك النجارية، وكثير من الجهمية عبادهم، وصوفيتهم، وعوامهم. ويقولون: إنه عين وجود المخلوقات، كما يقوله «أهل الوحدة» القائلون بأن الوجود واحد، ومن يكون قوله مركباً من الحلول والاتحاد.

وهم يحتجون بنصوص المعية والقرب، ويتأولون نصوص العلو والاستواء، وكل نص يحتجون به حجة عليهم؛ فإن المعية أكثرها خاصة بأنبيائه وأوليائه، وعندهم أنه في كل مكان، وفي نصوصهم ما يبين نقيض قولهم، فإنه قال: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]، فكل من في السموات والأرض يسبح، والمسبح غير المسبح، وقال: ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢]، فبين أن الملك له، ثم قال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]. وفي الصحيح: «أنت الأول فليس قبلك شيء» (١) . . . إلخ.

فإذا كان هو الأول، كان هناك ما يكون بعده، وإذا كان آخراً، كان هناك ما الرب بعده، وإذا كان ظاهراً ليس فوقه شيء، كان هناك ما الرب ظاهر عليه، وإذا كان باطناً ليس دونه شيء، كان هناك أشياء نفى عنها أن تكون دونه.

/ ولهذا قال ابن عربي: من أسمائه الحسنى (العلي) على من يكون علياً، وما ثم إلا هو؟! وعماداً يكون علياً وما هو إلا هو؟! فعلوه لنفسه، وهو من حيث الوجود عين الموجودات؛ فالمسمى محدثات هي العلية هي لذاتها، وليست إلا هو.

قال الخراز: وهو وجه من وجوه الحق، ولسان من ألسنته، ينطق عن نفسه بأن الله يعرف بجمعه بين الأضداد، فهو عين ما ظهر، وهو عين ما بطن في حال ظهوره، وما ثم من تراه غيره، وما ثم من يبطن عنه سواه، فهو ظاهر لنفسه، وهو باطن عن نفسه، وهو المسمى أبو سعيد الخراز . ١. هـ.

والمعية لا تدل على الممازجة والمخالطة، وكذلك لفظ «القرب»، فإن عند الحلولية أنه في حبل الوريد، كما هو عندهم في سائر الأعيان، وكل هذا كفر وجهل بالقرآن.

(١) مسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٣/٦١)، وأبو داود في الأدب (٥٠٥١)، والترمذي في الدعوات (٣٤٠٠)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣١)، وأحمد ٢/٣٨١، ٤٠٤، ٥٣٦، كلهم عن أبي هريرة.

الثالث: قول من يقول: هو فوق العرش، وهو في كل مكان، ويقول: أنا أقر بهذه النصوص، وهذه لا أصرف واحداً منها عن ظاهره، وهذا قول طوائف ذكرهم الأشعري في «المقالات الإسلامية»، وهو موجود في كلام طائفة من السالمية والصوفية، ويشبه هذا ما في كلام أبي طالب المكي، وابن برّجان وغيرهما، مع ما في كلام أكثرهم من التناقض. ولهذا كان أبو علي الأهوازي - الذي صنف مثالب ابن أبي بشر، ورد على أبي القاسم بن عساكر - هو من السالمية.

و/ وكذلك ذكر الخطيب البغدادي : أن جماعة أنكروا على أبي طالب بعض كلامه ٥/ ١٢٥ في الصفات.

وهذا - الصنف الثالث - وإن كان أقرب إلى التمسك بالنصوص، وأبعد عن مخالفتها من الصنفين الأولين، فإن الأول لم يتبع شيئاً من النصوص، بل خالفها كلها. والثاني: ترك النصوص الكثيرة، المحكمة المينة، وتعلق بنصوص قليلة اشتبهت عليه معانيها.

وأما هذا الصنف فيقول: أنا اتبعت النصوص كلها، لكنه غالط أيضاً، فكل من قال: إن الله بذاته في كل مكان فهو مخالف للكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة وأئمتها، مع مخالفته لما فطر الله عليه عباده، ولصريح المعقول وللأدلة الكثيرة.

وهؤلاء يقولون أقوالاً متناقضة. يقولون: إنه فوق العرش. ويقولون: نصيب العرش منه كنصيب قلب العارف؛ كما يذكر مثل ذلك أبو طالب وغيره، ومعلوم أن قلب العارف نصيبه منه المعرفة والإيمان، وما يتبع ذلك. فإن قالوا: إن العرش كذلك نقضوا قولهم: إنه نفسه فوق العرش. وإن قالوا بحلوله بذاته في قلوب العارفين، كان ذلك قولاً بالحلول الخاص.

و/ وقد وقع طائفة من الصوفية - حتى صاحب «منازل السائرين» في توحيده المذكور ٥/ ١٢٦ في آخر المنازل - في مثل هذا الحلول؛ ولهذا كان أئمة القوم يحذرون عن مثل هذا.

سئل الجنيد عن التوحيد. فقال: هو أفراد الحدوث عن القدام. فبين أنه لا بد للموحد من التمييز بين القديم الخالق والمحدث المخلوق، فلا يخلط أحدهما بالآخر. وهؤلاء يقولون في أهل المعرفة ما قالته النصارى في المسيح، والشيعية في أئمتها، وكثير من الحلولية والإباحية ينكر على الجنيد وأمثاله - من شيوخ أهل المعرفة المتبعين للكتاب والسنة - ما قالوه من نفي الحلول، وما قالوه في إثبات الأمر والنهي، ويرى أنهم لم يكملوا معرفة الحقيقة كماكملها هو وأمثاله من الحلولية والإباحية.

الرابع: هم سلف الأمة وأئمتها، أئمة أهل العلم والدين من شيوخ العلم والعبادة، فإنهم أثبتوا وآمنوا بجميع ما جاء به الكتاب والسنة، من غير تحريف للكلم عن مواضعه، أثبتوا أن الله فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه، وهم بائون منه.

وهو - أيضاً - مع العباد عموماً بعلمه، ومع أنبيائه وأوليائه بالنصر والتأييد والكفاية، وهو - أيضاً - قريب مجيب، ففي آية النجوى دلالة على أنه عالم بهم .

وكان النبي ﷺ يقول: «اللهم أنت الصاحب في السفر، / والخليفة في الأهل» (١) فهو مع المسافر في سفره، ومع أهله في وطنه، ولا يلزم من هذا أن تكون ذاته مختلطة بذواتهم، كما قال: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ [الفتح: ٢٩] أي: على الإيمان، لا أن ذاته في ذاتهم، بل هم مصاحبون له.

وقوله: ﴿ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء: ١٤٦] يدل على موافقتهم في الإيمان وموالاتهم، فالله - تعالى - عالم بعباده، وهو معهم أينما كانوا وعلمه بهم من لوازم المعية؛ كما قالت المرأة: زوجي طويل النَّجَاد، عظيم الرماد، قريب البيت من الناد!! فهذا كله حقيقة، ومقصودها: أن تعرف لوازم ذلك، وهو طول القامة، والكرم بكثرة الطعام؛ وقرب البيت من موضع الأضياف.

وفي القرآن: ﴿ أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠]، فإنه يراد برؤيته وسمعه إثبات علمه بذلك، وأنه يعلم هل ذلك خير أو شر؟ فيثب على الحسنات ويعاقب على السيئات. وكذلك إثبات القدرة على الخلق؛ كقوله: ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [العنكبوت: ٢٢]، وقوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَمْعَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤]، والمراد التخويف بتوابع السيئات ولوازمها من العقوبة والانتقام.

وهكذا كثير مما يصف الرب نفسه بالعلم بأعمال العباد؛ تحذيراً وتخويفاً ورغبة للنفوس في الخير. ويصف نفسه بالقدرة، والسمع، والرؤية، والكتاب. فمدلول اللفظ مراد منه، وقد أريد - أيضاً - لازم ذلك المعنى. فقد أريد ما يدل / عليه اللفظ في أصل اللغة بالمطابقة والالتزام؛ فليس اللفظ مستعملاً في اللازم فقط بل أريد به مدلوله الملزوم، وذلك حقيقة.

وأما القرب فذكره تارة بصيغة المفرد، كقوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾

(١) مسلم في الحج (١٣٤٢ / ٤٢٥) وأبو داود في الجهاد (٢٥٩٨).

أَجِيبُ ﴿البقرة: ١٨٦﴾ ، وفي الحديث: «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ» إلى أن قال: « إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلتك»^(١).

وتارة بصيغة الجمع كقوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦] ، وهذا مثل قوله: ﴿ نَتَلَوُ عَالِيكَ ﴾ [القصص: ٣] ، و﴿ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ [يوسف: ٣] ، و﴿ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ ﴾ [القيامة: ١٧] ، و﴿ عَلَيْنَا بَيَانُهُ ﴾ [القيامة: ١٩] ، فالقراءة هنا حين يسمعه من جبريل ، والبيان هنا بيانه لمن يبلغه القرآن .

ومذهب سلف الأمة وأئمتها وخلفها: أن النبي ﷺ سمع القرآن من جبريل ، وجبريل سمعه من الله - عز وجل . وأما قوله: ﴿ نَتَلَوُ ﴾ ، و﴿ نَقُصُّ ﴾ ونحوه، فهذه الصيغة في كلام العرب للواحد العظيم، الذي له أعوان يطيعونه، فإذا فعل أعوانه فعلاً بأمره قال: نحن فعلنا. كما يقول الملك: نحن فتحنا هذا البلد. وهو منا هذا الجيش ونحو ذلك .

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢] ، فإنه سبحانه يتوفاهم برسله الذين مقدمهم ملك الموت، كما قال: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١] ، ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ ﴾ [السجدة: ١١] ، وكذلك ذوات الملائكة تقرب من المحتضر، وقوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ .

٥/ ١٢٩ / فإنه - سبحانه وتعالى - هو وملائكته يعلمون ما توسوس به نفس العبد ، من حسنة وسيئة ، والهم في النفس قبل العمل . فقوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ هو قرب ذوات الملائكة ، وقرب علم الله ؛ فذاتهم أقرب إلى قلب العبد من حبل الوريد ؛ فيجوز أن يكون بعضهم أقرب إلى بعضه من بعض ؛ ولهذا قال في تمام الآية: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ [ق: ١٧] ، فقوله: «إذ» ظرف . فأخبر أنهم أقرب إليه من حبل الوريد حين يتلقى المتلقيان ما يقول . فهذا كله خبر عن الملائكة .

وقوله: ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦] ، و«هو أقرب إلى أحدكم من عنق راحلتك» ، هذا إنما جاء في الدعاء، لم يذكر أنه قريب من العباد في كل حال، وإنما ذكر ذلك في بعض الأحوال، كما في الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»^(٢) ونحو ذلك .

وقوله: « من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»^(٣) ، فقرب الشيء من الشيء مستلزم لقرب الآخر

(١) البخارى فى الجهاد (٢٩٩٢) ومسلم فى الذكر والدعاء (٤٦ / ٤٦٠٤) .

(٢) مسلم فى الصلاة (٤٨٢ / ٢١٥) .

(٣) البخارى فى التوحيد (٧٥٣٦) ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٦٧٥ / ٢١ ، ٢٦٧٦ / ٢٢) .

منه، لكن قد يكون قرب الثاني هو اللازم من قرب الأول ، ويكون منه - أيضاً - قرب بنفسه .

فالأول: كمن تقرب إلى مكة، أو حائط الكعبة، فكلما قرب منه قرب الآخر منه، من غير أن يكون منه فعل .

/ والثاني: كقرب الإنسان إلى من يتقرب هو إليه، كما تقدم في هذا الأثر الإلهي .
فتقرب العبد إلى الله، وتقريبه له نطقت به نصوص متعددة، مثل قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧] ونحو ذلك ، فهذا قرب الرب نفسه إلى عبده، وهو مثل نزوله إلى سماء الدنيا .

٥ / ١٣٠

وفي الحديث الصحيح: «أن الله - تعالى - يدنو عَشِيَّةَ عَرَفَةَ، ويباهي الملائكة بأهل عرفة»^(١)، فهذا القرب كله خاص في بعض الأحوال دون بعض، وليس في الكتاب والسنة - قط - قرب ذاته من جميع المخلوقات في كل حال، فعلم بذلك بطلان قول الحلولية؛ فإنهم عمدوا إلى الخاص المقيد فجعلوه عاماً مطلقاً، كما جعل إخوانهم الاتحادية ذلك في مثل قوله: «كنت سمعه»^(٢) وقوله: «فيأتيهم في صورة غير صورته»^(٣)، وأن الله - تعالى - قال على لسان نبيه: «سمع الله لمن حمده»^(٤)، وكل هذه النصوص حجة عليهم .

فإذا تبين ذلك ؛ فالداعي والساجد يوجه روحه إلى الله - تعالى - والروح لها عروج يناسبها . فتقرب إلى الله بلا ريب بحسب تخلصها من الشوائب ، فيكون الله - عز وجل - منها قريباً قريباً يلزم من تقريبها، ويكون منه قرب آخر، كقربه عشية عرفة، وفي جوف الليل، وإلى من تقرب منه شبراً تقرب منه ذراعاً . والناس في آخر الليل يكون في قلوبهم من التوجه، والتقرب، والرقعة، مالا يوجد في غير/ ذلك الوقت . وهذا مناسب لنزوله إلى سماء الدنيا، وقوله: «هل من داع؟ هل من سائل؟ هل من تائب؟»^(٥) .

٥ / ١٣١

(١) مسلم في الحج (٤٣٦/١٣٤٨)، والنسائي في الحج (٣٠٠٣)، وابن ماجه في المناسك (٣٠١٤) عن عائشة .

(٢) البخارى فى الرقاق (٦٥٠٢) .

(٣) البخارى فى التوحيد (٧٤٣٩) ومسلم فى الإيمان (١٨٢ / ٢٩٩) .

(٤) البخارى فى الأذان (٧٨٩)، ومسلم فى الصلاة (٢٨/٣٩٢) ، وأبو داود فى الصلاة (٦٠٣)، والترمذى فى

الصلاة (٢٦٧)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح» ، والنسائي فى الافتتاح (٩٢١)، وابن ماجه فى إقامة

الصلاة (٨٤٦) .

(٥) سبق تخريجه ص ٣٨ .

ثم إن هذا النزول: هل هو كدونه عشية عرفة، لا يحصل لغير الحاج في سائر البلاد - إذ ليس بها وقوف مشروع، ولا مباهاة الملائكة، وكما أن تفتيح أبواب الجنة، وتغليق أبواب النار، وتصفيد الشياطين إذا دخل شهر رمضان، إنما هو للمسلمين الذين يصومون رمضان؛ لا الكفار الذين لا يرون له حرمة، وكذلك اطلاعه يوم بدر، وقوله لهم: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ» (١) كان مختصاً بأولئك - أم هو عام؟ فيه كلام ليس هذا موضعه. والكلام في هذا القرب من جنس الكلام في نزوله كل ليلة، ودنوه عشية عرفة، وتكليمه لموسى من الشجرة، وقوله: ﴿أَنْ بَوِّكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨].

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع ما قاله السلف في مثل ذلك؛ مثل حماد بن زيد، وإسحاق بن راهويه، وغيرهما، من أنه ينزل إلى سماء الدنيا ولا يخلو منه العرش، وبيننا أن هذا هو الصواب، وإن كان طائفة ممن يدعى السنة يظن خلو العرش منه.

وقد صنف أبو القاسم عبد الرحمن بن مندة في ذلك مصنفاً، وزيف قول من قال: ينزل ولا يخلو منه العرش، وضعف ما قيل في ذلك عن أحمد بن حنبل / في رسالته إلى مسدد، وطعن في هذه الرسالة. وقال: إنها مكذوبة على أحمد وتكلم على راويها البردعي أحمد بن محمد. وقال: إنه مجهول لا يعرف في أصحاب أحمد.

وطائفة تقف، لا تقول: يخلو، ولا: لا يخلو، وتكرر على من يقول ذلك. منهم: الحافظ عبد الغني المقدسي.

وأما من يتوهم أن السموات تنفرج ثم تلتحم، فهذا من أعظم الجهل، وإن وقع فيه طائفة من الرجال.

والصواب: قول السلف؛ أنه ينزل ولا يخلو منه العرش؟ وروح العبد في بدنه لا تزال ليلاً ونهاراً إلى أن يموت، ووقت النوم تعرج، وقد تسجد تحت العرش، وهي لم تفارق جسده. وكذلك أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد، وروحه في بدنه، وأحكام الأرواح مخالف لأحكام الأبدان، فكيف بالملائكة؟! فكيف برب العالمين؟!

والليل يختلف، فيكون ثلث الليل بالمشرق قبل ثلثه بالمغرب، ونزوله الذي أخبر به رسوله إلى سماء هؤلاء في ثلث ليلهم، وإلى سماء هؤلاء في ثلث ليلهم، لا يشغله شأن عن شأن، وكذلك - سبحانه - لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلظه المسائل، بل هو

(١) البخاري في الجهاد (٣٠٠٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (١٦١/٢٤٩٤)، وأبو داود في الجهاد (٢٦٥٠)، والترمذي في التفسير (٣٣٠٥)، وأحمد ١/٨٨٠، كلهم عن عبيد الله بن أبي رافع.

سبحانه يكلم العباد يوم القيامة ويحاسبهم، لا يشغله هذا عن هذا.

٥/ ١٣٣

/ وقد قيل لابن عباس: كيف يكلمهم يوم القيامة كلهم في ساعة واحدة؟ قال: كما يرزقهم كلهم في ساعة واحدة. واللّه - سبحانه - في الدنيا يسمع دعاء الداعين، ويجيب السائلين، مع اختلاف اللغات، وفنون الحاجات، والواحد منا قد يكون له قوة سمع يسمع كلام عدد كثير من المتكلمين، كما أن بعض المقرئين يسمع قراءة عدة، لكن لا يكون إلا عدداً قليلاً قريباً منه، ويجد في نفسه قرباً ودنوياً، وميلاً إلى بعض الناس الحاضرين والغائبين دون بعض، ويجد تفاوت ذلك الدنو والقرب.

والرب - تعالى - واسع عليهم، وسع سمعه الأصوات كلها، وعطاؤه الحاجات كلها. ومن الناس من غلط فظن أن قربه من جنس حركة بدن الإنسان، إذا مال إلى جهة انصرف عن الأخرى، وهو يجد عمل روحه يخالف عمل بدنه؛ فيجد نفسه تقرب من نفوس كثيرين من الناس، من غير أن ينصرف قريباً إلى هذا عن قريبها إلى هذا.

وبالجملّة فقرب الرب من قلوب المؤمنين، وقرب قلوبهم منه، أمر معروف لا يجهل؛ فإن القلوب تصعد إليه على قدر ما فيها من الإيمان والمعرفة، والذكر والخشية والتوكل. وهذا متفق عليه بين الناس كلهم، بخلاف القرب / الذي قبله؛ فإن هذا ينكره الجهمي، الذي يقول: ليس فوق السموات رب يعبد، ولا إله يصلى له ويسجد، وهذا كفر وفند^(١).

٥/ ١٣٤

والأول ينكره الكلائية، ومن يقول: لا تقوم الأمور الاختيارية به، ومن أتباع الأشعري من أصحاب أحمد وغيره، من يجعل الرضا والغضب والفرح والمحبة هي الإرادة، وتارة يجعلونها صفات آخر قديمة غير الإرادة.

ثم قال بعد كلام طويل: هذا يبين أن كل من أقر باللّه فعنده من الإيمان بحسب ذلك، ثم من لم تقم عليه الحجة بما جاءت به الأخبار، لم يكفر بجحده. وهذا يبين أن عامة أهل الصلاة مؤمنون باللّه ورسوله، وإن اختلفت اعتقاداتهم في معبودهم وصفاته، إلا من كان منافقاً يظهر الإيمان بلسانه، ويبطن الكفر بالرسول، فهذا ليس بمؤمن.

وكل من أظهر الإسلام ولم يكن منافقاً فهو مؤمن، له من الإيمان بحسب ما أوتيته من ذلك، وهو ممن يخرج من النار، ولو كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، ويدخل في هذا جميع المتنازعين في الصفات والقدر، على اختلاف عقائدهم، ولو كان لا يدخل الجنة إلا

(١) الفند: الحرف والخطأ في الرأي والقول، والكذب. انظر: القاموس، مادة «فند».

من يعرف الله كما يعرفه نبيه ﷺ ، لم تدخل أمتة الجنة؛ فإنهم - أو أكثرهم - لا يستطيعون هذه المعرفة، بل يدخلون الجنة، وتكون منازلهم متفاضلة بحسب إيمانهم ومعرفتهم.

وإذا كان الرجل قد حصل له إيمان يعبد الله به، وأتى آخر بأكثر من ذلك عجز عنه الأول، لم يحمل ما لا يطيق، وإن يحصل له بذلك فتنة، لم يحدث بحديث يكون له فيه فتنة.

فهذا أصل عظيم في تعليم الناس ومخاطبتهم، والخطاب العام بالنصوص التي اشتركوا في سماعها؛ كالقرآن والحديث المشهور، وهم مختلفون في معنى ذلك. والله - تعالى - أعلم.

/ وسئل شيخ الإسلام - رحمه الله أيضاً - عن علو الله على سائر مخلوقاته.

فأجاب :

أما علو الله - تعالى - على سائر مخلوقاته، وأنه كامل الأسماء الحسنی والصفات العلی، فالذي يدل عليه منها الكتاب: قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَقِّعٌ وَّرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقوله: ﴿أَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [المالك: ١٦، ١٧]، وقوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِّنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، وقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ في ستة مواضع؛ وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقوله إخباراً عن فرعون: ﴿يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ . أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]، وقوله: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقوله: ﴿مَنْزَلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأأنعام: ١١٤]، وأمثال ذلك.

/ والذي يدل عليه من السنة: قصة معراج الرسول إلى ربه، ونزول الملائكة من عند الله وصعودها إليه، وقوله في الملائكة الذين يتعاقبون في الليل والنهار: «فيخرج الذين باتوا فيكم إلى ربهم فيسألهم وهو أعلم بهم»^(١). وفي حديث الخوارج: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟»^(٢)، وفي حديث الرقية: «ربنا الله الذي في السماء، تقدس اسمك»^(٣)، وفي حديث الأوعال: «والعرش فوق ذلك، والله فوق عرشه، وهو يعلم ما أنتم عليه»^(٤)، وفي حديث قبض الروح: «حتى يعرج بها إلى السماء التي فيها الله»^(٥).

وفي سنن أبي داود: عن جبير بن مطعم قال: أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال: يارمسل الله، جهدت الأنفس، وجاع العيال، وهلك المال، فادع الله لنا، فإننا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، فسبح رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه وقال: «ويحك! أتدري ما الله؟ إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه، شأن

(٤ ، ٥) سبق تخريجها ص ١٣ .

(١ - ٣) سبق تخريجها ص ١٢ .

الله أعظم من ذلك، إن الله على عرشه، وإن عرشه على سمواته وأرضه كهكذا» وقال بأصابعه مثل القبة^(١).

وفي الصحيح عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ لما خطب خطبة عظيمة يوم عرفات في أعظم جمع حضره رسول الله ﷺ جعل يقول: «ألا هل بلغت؟» فيقولون: نعم. فيرفع إصبعه إلى السماء/ وينكبها إليهم ويقول: «اللهم اشهد»^(٢) غير مرة. ٥/ ١٣٨ وحديث الجارية لما سألتها: «أين الله؟» قالت: في السماء. فأمر بعقها^(٣)، وعلل ذلك بإيمانها. وأمثاله كثيرة.

وأما الذي يدل عليه من الإجماع: ففي الصحيح عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: كانت زينب تفتخر على أزواج النبي ﷺ، تقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سمواته^(٤).

وروى عبد الله بن أحمد وغيره بأسانيد صحاح عن ابن المبارك، أنه قيل له: بم نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه، ولا نقول كما قالت الجهمية: إنه هاهنا في الأرض.

وبإسناد صحيح عن سليمان بن حرب - الإمام - سمعت حماد بن زيد - وذكر الجهمية - فقال: إنما يجاولون أن يقولوا: ليس في السماء شيء.

وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن عامر الضبعي - إمام أهل البصرة علماً ودينياً - أنه ذكر عنده الجهمية فقال: هم أشركوا من اليهود والنصارى، وقد اجتمع أهل الأديان مع المسلمين على أن الله - تعالى - على العرش، وقالوا هم: ليس على العرش شيء.

وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة - إمام الأئمة - من لم يقل: إن الله فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه، وجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ثم ألقى على مزبلة، لئلا يتأذى به أهل القبلة ولا أهل الذمة.

٥/ ١٣٩ /وروى الإمام أحمد قال: إن شريح بن النعمان قال: سمعت عبد الله بن نافع الصائغ قال: سمعت مالك بن أنس يقول: الله في السماء، وعلمه في كل مكان، لا يخلو من علمه مكان.

وحكى الأوزاعي - أحد الأئمة الأربعة في عصر تابعي التابعين الذين هم مالك إمام

(١) أبو داود في السنة (٤٧٢٦) وضعفه الألباني .

(٢) سبق تخريجه ص ١٤ .

(٣) سبق تخريجه ص ٣٧ .

(٤) سبق تخريجه ص ١٣ .

أهل الحجاز، والأوزاعي إمام أهل الشام، والليث إمام أهل البصرة، والثوري إمام أهل العراق - حكى شهرة القول في زمن التابعين بالإيمان بأن الله - تعالى - فوق العرش وبصفاته السمعية، وإنما قاله بعد ظهور جهم، المنكر لكون الله فوق عرشه النافي لصفاته، ليعرف الناس أن مذهب السلف خلافه.

وروى الخلال بأسانيد - كلهم أئمة - عن سفيان بن عيينة قال : سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن قوله تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]: كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، ومن الرسول البلاغ، وعلينا التصديق.

وهذا مروى عن مالك بن أنس - تلميذ ربيعة بن أبي عبد الرحمن - أو نحوه. وقال الشافعي: خلافة أبي بكر حق، قضاه الله - تعالى - في سمائه، وجمع عليه قلوب عباده.

ولو يجمع ما قاله الشافعي في هذا الباب لكان فيه كفاية، ومن أصحاب الشافعي عبد العزيز بن يحيى الكناني المكي، له كتاب: «الرد على الجهمية» وقرر فيه/ «مسألة العلو» وأن الله - تعالى - فوق عرشه. والأئمة في الحديث والفقهاء والسنة والتصوف المائلون إلى الشافعي ما من أحد منهم إلا له كلام فيما يتعلق بهذا الباب ما هو معروف، يطول ذكره.

٥/١٤٠

وفي كتاب «الفقه الأكبر» المشهور عن أبي حنيفة، يروونه بأسانيد عن أبي مطيع الحكم بن عبد الله، قال : سألت أبا حنيفة عن «الفقه الأكبر» فقال : لا تكفرون أحداً بذنب. إلى أن قال - عمن قال: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض - فقد كفر؛ لأن الله يقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وعرشه فوق سبع سموات . قلت : فإن قال : إنه على العرش، ولكن لا أدري، العرش في السماء أم في الأرض. قال : هو كافر - وإنه يدعى من أعلى لا من أسفل.

وسئل علي بن المديني عن قوله : ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾. الآية قال: اقرأ ما قبله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية [المجادلة: ٧].

وروى عن أبي عيسى الترمذي قال : هو على العرش كما وصف في كتابه، وعلمه وقدرته وسلطانه في كل مكان.

وأبو يوسف لما بلغه عن المريسي أنه ينكر الصفات الخيرية، وأن الله فوق عرشه، أراد ضربه فهرب، فضرب رفيقه ضرباً بشعاً. وعن أصحاب أبي حنيفة في هذا الباب ما لا يحصى.

/ونقل - أيضاً - عن مالك: أنه نص على استتابة الدعاة إلى «مذهب جهم»، ونهى

٥/١٤١

عن الصلاة خلفهم.

ومن أصحابه محمد بن عبد الله بن أبي زمنين - الإمام المشهور - قال : في الكتاب الذي صنفه في « أصول السنة » :

باب الإيمان بالعرش

قال : ومن قول أهل السنة : أن الله خلق العرش وخصه بالعلو والارتفاع فوق جميع ما خلق، ثم استوى عليه كيف شاء، كما أخبر عن نفسه في قوله : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، إلى أن قال : فسبحان من بعد فلا يرى، وقرب بعلمه وقدرته.

وأما أحمد بن حنبل وأصحابه فهم أشهر في هذا الباب، وبه ائتم أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري المتكلم - صاحب الطريقة المنسوبة إليه - قال :

فصل في إبانة قول أهل الحق والسنة

فإن قال قائل : قد أنكرتم قول المعتزلة، والقدرية، والجهمية، والحرورية والرافضة، والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي تقولون، وديانتكم التي بها تدينون. قيل له : قولنا الذي نقول به وديانتنا التي بها ندين الله: التمسك بكتاب ربنا، وسنة نبينا محمد، وما روى عن الصحابة والتابعين، وأئمة الحديث. ونحن بذلك معتمدون، وبما كان يقول أبو عبد الله أحمد بن حنبل - نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته - قائلون، ولما خالف قوله مخالفتون؛ لأنه الإمام / الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق عند ظهور الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمّع به بدع المتدعين، وزیغ الزائغين، وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدّم، وجليل معظم، وكبير مفهم.

٥/١٤٢

وجملة قولنا: بأننا نفر بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وبما جاؤوا به من عند الله وبما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ، لا نرد من ذلك شيئاً، وأن الله واحد لا إله إلا هو، فرد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، وأن الجنة حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن الله مستو على عرشه كما قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ونعود فيما اختلفنا فيه إلى كتاب ربنا وسنة نبينا وإجماع المسلمين. إلى أن قال :